عرفت هؤلاء

بقلم : أنور السادات

عندما أقيلت حكومة النحاس في أكتوبر ٤٤ وجاءت حكومة أحمد ماهر .. تصورت أن الحكومة الجديدة ستفرج عنا .. ولكنها أفرجت عن جميع المعتقلين إلا المقبوض عليهم بأوامر السلطات البريطانية .

وأدركت أن قرار خروجي من المعتقل لن يأتي من الخارج .. بل من داخلي أنا .. وأصدرت قراري بالهروب من السجن .. .

«الكونت» .. الذي قابلته في معتقل الزيتون .. !

كان أهم خبر سمعته وأنا في معتقل « ماقوسة » بالمنيا هو خبر إغلاق المعتقل .. ونقلي إلى معتقل الزيتون .

وقبل أن يأتيني خبر النقل .. كان زميلي في المعتقل حسن عزت قد إنتقل إلى المستشفى للعلاج .. وهناك دبر خطة للهرب ونجح فيها .

أما أنا فقد سعدت سعادة عظيمة لانتقالي من المنيا إلى الزيتون .. ورغم أنني في الحقيقة إنتقلت من سجن إلى سجن ومن قضبان إلى قضبان .. إلا أن العودة إلى القاهرة كانت في حد ذاتها شيئا رائعا .. كنت كالجندي الذي عاد إلى قلب المعركة بعد غياب طويل .. وكانت القاهرة هي القلب النابض .. وخاصة بالنسبة لمن نذروا حياتهم للقضية الوطنية .. كذلك شعرت بالراحة لأنني أصبحت قريبا من أسرتي التي تستطيع أن تزورني بسهولة دون أن تتجشم مشقة السفر الطويل وتكاليفه .

كان معتقل الزيتون قصرا كبيرا تحوطه حديقة ضخمة .. ومازال هذا القصر قائما حتى اليوم .. ولكنه تحول من سجن إلى مدرسة .. أما الحديقة فقد إختفت بالمباني الحديثة .. وفي هذه الحديقة بدأنا نمارس حياتنا الجديدة بنشاط وهمة وكأننا نسينا أننا في سجن .. ويركزنا معظم نشاطنا على زراعة الحديقة وتربية الأرانب .. التي أكلنا منها أطباقا شهية وشهية .

وكاد العمل في حديقة السجن ينسينا مصيرنا .. لولا منظر السور الرهيب الذي يحيط بنا من كل جانب ويذكرنا بالحقيقة .. يذكرنا بحريتنا التي تركناها بالخارج .. وبوطننا الذي فقد هو الآخر حريته .

وفي معتقل الزيتون التقيت بألوان مختلفة من المعتقلين .. الذين دخلوا المعتقل لأسباب مختلفة وبأوامر صدرت من جهات وسلطات مختلفة أيضا .

التقيت بجلال الحمامصي وموسى صبري اللذين دخلا المعتقل بأوامر من حكومة الوفد بسبب قضية الكتاب الأسود الذي أصدره مكرم عبيد ضد النحاس .. والتقيت بمحمد صبيح من مصر الفتاة .. والتقيت بمجموعة من الشوام التحريريين يؤيدون حكومة لبنان الشرعية للتحرر .. ومن المعروف أن سوريا ولبنان .. وهؤلاء الشوام .. كانوا مناهضين لاحتلال حكومة فيشي الفرنسية .

وكان معنا في المعتقل أيضا شخصيات أرستقراطية تسترعي الانتباه .. والإهتمام أحيانا .

ومن بين هذه الشخصيات « كونت » من جمهورية « استونيا » التي تقع على بحر البلطيق .. والتي كانت جمهورية مستقلة في ذلك الوقت .. ثم إستولى عليها الاتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية هي وجمهوريتي « لاتفيا » و« ليتوانيا » .. وضمهم جميعا إليه .

وكانت العادات والتقاليد الارستقراطية التي يصر الكونت على التمسك بها وسط جدران السجن تدعو للسخرية والضحك في كثير من الأحيان .. فقد رفض الكونت أن يقيم معنا في القصرين اللذين يتكون منهما المعتقل .. وفضل الاقامة في « البدروم » وحده .. لأنه شخص ويذكره بالمجد الضائع الذي تركه في استونيا .. وبعد فترة بدأ الكونت يتنازل ويقيم علاقات طبيعية بين مقره الرسمي في « البدروم » وبين القصرين اللذين نقيم فيهما !!

وتطورت هذه العلاقات إلى حد أنه بدأ يطبخ لنا الأكلات « استونية » خاصة .. وفي يوم أعد لنا وليمة فاخرة ودعانا إلى البدروم لكي نأكل .. وجلسنا ننتظر الطعام على أحر من الجمر وكنا في فصل الشتاء .. وفوجئنا بالكونت يرفع المراتب التي ينام عليها ويخرج من بينها « حلل الطبيخ » وهي ساخنة .. وقبل أن نعبر عن دهشتنا شرح لنا الأمر بطريقته الارستقراطية قائلا :

لقد وضعت الحلل بين المراتب لكي تحتفظ بحرارتها وتستمتعوا بالطعام وهو ساخن !!

وإلى جانب الكونت الاستوني .. كان هناك اليمني البلد .. خفيف الظل .. الذي يأتي إلى المعتقل ويفرج عنه .. ثم نفاجأ به يعود إلى المعتقل مرة أخرى وكأنه مرتبط به بشيء ما !!

وفعلا كان هناك سبب غريب يدعو هذا الشخص بالذات للعودة إلى المعتقل كلما أفرج عنه .. فقد كان يعمل بائعا للكتب في حي سيدنا الحسين .. وكان رزقه محدودا .. وفي مرة كان يشتم الانجليز علنا .. فقبضت عليه السلطات المصرية وأودعته المعتقل لأنه يهدد الحلفاء في زمن الحرب !! وفي المعتقل اكتشف هذا الانسان البسيط أن هناك مرتبا يعطى للمعتقلين .. وقد رفضت أنا وزملائي هذا المرتب لأننا لا نقبل ثمنا لحريتنا .. واكتشف أن مرتب السجين أكبر من دخله خارج السجن .. ولهذا كان يعود دائما للمعتقل بعد يوم أو يومين من الإفراج عنه !! .. وكان زميلنا بائع الكتب يقضي أيام المعتقل في سعادة وراحة بال .. ويوفر من المرتب الذي يقبضه إستعدادا لأيام الضنك بعد خروجه منه .

ومن أغرب الشخصيات التي قابلتها في معتقل الزيتون « أبو شادي » الذي كان موظفا كبيرا بوزارة الداخلية وكان « أسطى » في لعبة الانتخابات .. وقد اعتقل في عهد وزارة الوفد ثم أفرج عنه بعد إقالة الوفد مباشرة .. وكلفه أحمد ماهر بأن يذهب إلى مكتبه بسلطة مباشرة التي يضع يده على جميع أوراق وزير الداخلية الوفدي ثم يعد بعد ذلك لاجراء الانتخابات العامة .

ولم ينس « أبو شادي » طبيعته كمسئول بالداخلية حتى وهو في المعتقل .. فعندما قمت بثورة ضد إدارة المعتقل لما أساءوا معاملتنا وتحسين التشاريس بين القصرين الأول والثاني جاء يعاتبني ويقول : كيف تقوم بثورة ونحن مسجونون .. فقلت له : صحيح نحن مسجونون .. ولكننا معتقل على الأقل القدرة على الرفض والمقاومة .. ولم يستطع الرجل أن يفهمني لأنه لم تكن هناك لغة مشتركة بيننا .. فلم تكن التحدث كالسجان بأي النظام بطبيعته .. وكان يتحدث كمسئول بوزارة الداخلية .. لا ينس وظيفته حتى وهو مسجون !!

وعندما أقيلت وزارة النحاس في ٨ أكتوبر ١٩٤٤ أفرجت الحكومة الجديدة عن أبو شادي كما قلت .. كما أفرجت عن الحمامصي وموسى صبري .. وكل أعضاء حزب الكتلة الذين دخلوا المعتقل بسبب قضية الكتاب الأسود .. أما الذين اعتقلتهم السلطات البريطانية .. وأنا واحد منهم .. فلم يطرأ على وضعهم أي تغيير .. حكومات تذهب وحكومات تجيء .. وأبواب المعتقل تفتح وتغلق ونحن في مكاننا ..

وكنت أتصور أن حكومة أحمد ماهر ستنظر إلى قضيتنا بشكل مختلف عن حكومة النحاس .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .. فنحن في نظر الحكومتين أعداء للانجليز .. والانجليز فقط هم الذين يملكون سلطة الإفراج عنا !!

وقررت ألا أنتظر قرار الإفراج الذي لن يأتي من جانب الانجليز أبدا .. قررت أن أهرب من المعتقل .. وأن أحصل على حريتي بذراعي .

كان حسن عزت على إتصال دائم بي منذ هروبه من معتقل المنيا .. أرسلت له أقول أنني قررت الهرب فرتب الهروب لذلك .

وبدأت خطة الهرب بالاضراب عن الطعام أنا وبعض المعتقلين .. وظللت مضربا عن الطعام رغم تراجع زملائي في الاضراب .. واضطرت إدارة المعتقل إلى نقلي إلى مستشفى قصر العيني الجديد .. ومن هناك هربت بمساعدة حسن عزت .

وقررت بمجرد هروبي من معتقل الزيتون أن استأنف نشاطي السياسي الذي بدأته قبل دخولي المعتقل .

وكان تنظيم الضباط الذي شكلته سنة ٣٩ مازال مستمرا في العمل .. رغم اعتقالي سنة ٤٢ .. بقيادة الرجل الثاني في التنظيم وهو عبد المنعم عبد الرؤوف .. وكنت من ناحيتي قد عبد المنعم لكي يحل محلي في قيادة التنظيم إذا تعرضت لأي مكروه .. وهذا تقليد عسكري معروف أن يكون لكل تنظيم قائد ونائب قائد .. وقبل أن أدخل السجن قمت بتعريف عبد المنعم بحسن البنا الذي يرشحه .. كجزء من عملية إعداده السياسي .

وعندما اعتقلت في صيف ٤٢ تولى عبد المنعم عبد الرؤوف قيادة التنظيم بالفعل .

في هذه الفترة كان جمال عبد الناصر يخدم مع كتيبته في السودان وكان ضابطا متميزا ومعروفا وعندما عاد إلى مصر في أواخر سنة ٤٢ إتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف وضمه إلى التنظيم واستمر جمال في التنظيم ثم تسلم مسئوليته بالكامل فيما بعد .

وعندما هربت من المعتقل كان عزيز المصري مازال في مستشفى السجن بقصر عيدان وكانت الإتصالات تجري بيني وبينه عن طريق ضابط بوليس كان معنا في التنظيم اسمه صلاح مصطفى ولكنها كانت اتصالات في حدود الاطمئنان على صحته وحالته العامة لأن الرجل تحمل الكثير من جراء نشاطه السياسي ورغم أن نشاطه كان متوقفا في هذه المرحلة إلا أن اسم عزيز المصري كان يشكل الرمزية الحية التي يتحرك عليها النشاط الوطني في هذه المرحلة .

وظل تنظيم الضباط ينمو حتى وصل إلى سنة ٤٩ .. وكان جمال عبد الناصر الذي تسلم التنظيم قد قسمه إلى خلايا متماسكة واستقل جمال مركزه كأستاذ في كلية أركان حرب لتنمية التنظيم وضم مزيد من الضباط إليه .. وعندما وصل التنظيم إلى سنة ١٩٥٦ بدأ التساؤل بين صفوفه عن القيادة التي تتحمل المسئولية على قمته .. وابتدأ فكر جمال في تشكيل الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار لقيادة التنظيم وهي التي تحولت بعد ذلك إلى مجلس قيادة الثورة .

وشكل جمال الهيئة التأسيسية من عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وكمال الدين حسين وهؤلاء الثلاثة كانوا معه في حرب فلسطين .. ومن ثلاثة آخرين كانوا في التنظيم الذي بدأته أنا في سنة ٣٩ وهم : عبد اللطيف البغدادي وحسن ابراهيم وخالد محيي الدين .

والحقيقة والتاريخ أقول إن جمال عبد الناصر هو الذي رشحني أنا وعبد المنعم عبد الرؤوف لعضوية أول هيئة تأسيسية للضباط الأحرار وقد أصر على ذلك كنوع من الوفاء منه والعرفان بالدور الذي قمنا به وهذا جميل لا أنساه لعبد الناصر ما حييت .

فقد كنت بعيدا عن صفوف الجيش لمدة ٨ سنوات كاملة منذ فصلي من الخدمة سنة ٤٢ وحتى عودتي سنة ٥٠ .. والبعد عن صفوف الجيش يستدعي بالضرورة بعدا عن ذاكرة الضباط لأن صفوف الضباط تشهد تغيرا مستمرا من خريجي الكلية الحربية في كل عام لا تعرف أي شيء عن الضباط القدامى الذين تركوا الخدمة فالكلية الحربية تستقبل في كل عام ألف طالب جديد أي أن الجيش يستقبل ألف ضابط في العام وخلال ثماني سنوات قضيتها خارج الخدمة تدفق على صفوف الجيش آلاف الضباط الذين لا يعرفون شيئا عما حدث سنة ١٩٤٢ .

وأخطرني جمال بالتصعيد إلى الهيئة التأسيسية وبذلك تشكلت أول هيئة تأسيسية للضباط الأحرار من ٩ أعضاء كان عبد المنعم عبد الرؤوف واحدا منهم .

وكان عبد المنعم عبد الرؤوف أول من خرج من الهيئة التأسيسية قبل قيام الثورة ولهذا قصة طويلة .

كنت قد عرفت عبد المنعم بحسن البنا قبل دخولي المعتقل سنة ٤٢ كما ذكرت سابقا ولما انضم جمال إلى التنظيم في أواخر ٤٢ قام عبد المنعم بتعريف جمال بحسن البنا كما فعلت أنا معه .

وكان موقفي أنا وجمال مع حسن البنا كان مختلفا عن موقف عبد المنعم عبد الرؤوف .

لقد قلت للبنا بمنتهى الصراحة إن تنظيم الضباط لا يمكن أن ينضم لأي حزب أو هيئة ولن يعرض نفسه للصراعات والانقسامات الحزبية لأن هذا التنظيم يعمل على أساس وطني ومن أجل مصر كلها .

وكذلك قال له جمال عبد الناصر .

وكان هدف البنا أن يضمنا إلى الاخوان المسلمين وأن نعمل ضمن تشكيلاته العسكرية وكان للاخوان في هذا الوقت فرع عسكري بقيادة ضابط على المعاش اسمه محمود لبيب من الذين شاركوا في حرب ليبيا وفي الحرب العالمية الأولى ولم يكن يصلح لقيادة أي عمل عسكري .

كان موقفنا .. جمال وأنا .. ألا ننضم لتشكيل الاخوان العسكري أو لأي تشكيل حزبي آخر .. وفي حين لم ينجح البنا في إقناعنا بالانضمام إليه فإنه نجح مع عبد المنعم عبد الرؤوف مستغلا بعض ظروفه الخاصة .

كان عبد المنعم قد عانى من التشرد والمعاناة بعد اشتراكه في عملية الطائرة مع عزيز المصري فقد ترك مرتبه في الجيش وأصبح بلا مورد مالي هو وعائلته ولم تنس أسرته بالواجب تجاه محنة عبد المنعم كما حصل وجيه خليل مع عائلتي تماما فسأل تكريم أيام التشرد الشخصية أم تعاطف مطيلة عبد المنعم وظل الرجل يبحث عن الشخص له ولعائلته في حالة تعرضه لأي متاعب أخرى .

وكانت هذه نقطة الضعف التي دخل منها حسن البنا إلى عبد المنعم عبد الرؤوف .. فقد اقتنعه بالانضمام إلى تنظيم مسلح كالاخوان المسلمين يوفر له الأمان والضمان الذي يبحث عنهما .

وحاول عبد المنعم أن يقنعنا بوجهة النظر هذه ولكن موقفنا في هذه القضية لم يكن قابلا للتغيير .

ووصل الى علمنا بعد ذلك أن عبد المنعم يقوم بعمل تعبئة بين الضباط للعمل تحت قيادة الاخوان وكان هذا أمرا خطيرا يستدعي إنعقاد الهيئة التأسيسية وطرح جمال القضية على الهيئة فقررنا فصل عبد المنعم عبد الرؤوف في نفس الجلسة التي عين فيها وهي سنة ١٩٥٠ .

ولم يكن موقفنا هذا من الاخوان يعني عدم التعاون معهم بشكل قطعي بل على العكس فقد كنا نتعاون من الشكل التعاون العسكري خلال معارك القناة سنة ٥١ كان جمال عبد الناصر يقوم بتدريب تشكيلات الاخوان العسكرية للاشتراك في هذه المعارك وكنا نرسل لهم السلاح اللازم لذلك من غزة ورفح وكان جمال يعرف جميع كوادرهم العسكرية وميادين التدريب الخاصة بهم ولذلك عندما حدث الصدام معهم سنة ٥٤ إستطاع تصفيتهم بسهولة .

ولم ينس عبد المنعم عبد الرؤوف واقعة فصله من الهيئة التأسيسية فقد تولى هذه العملية ضمير طيب وعندما حدث الصدام بين الثورة والاخوان سنة ٥٤ وقف مع الاخوان ضدنا وظهر أنه دبر خطة القضاء علينا بالتخلص في أن يقتل علينا مجلس الوزراء وحول بسطه حزام من المتفجرات لينسفنا وينسف نفسه مرة واحدة وكان يمكن أن تنجح هذه الخطة بسهولة لأن عبد المنعم صديق وزميل قديم ويستطيع دخوله علينا في مجلس الوزراء لم يكن ليثير الشكوك في نفوسنا .

وعند القبض على الاخوان هرب عبد المنعم إلى لبنان .

وفوجئت بجمال يسألني في يوم من الأيام .

- إيه رأيك يا أنور لو قبضنا على عبد المنعم نعمل فيه إيه ؟ .

وأجبت بلا تردد

هذه مسألة لا تحتاج إلى مناقشة وأنا موافق في مثل هذه المسائل الشخصية صحيح عبد المنعم كان مساعدي في التنظيم ولكن لابد أن نتصرف معه بمنتهى الشدة والحسم

ويبدو أن جمال كان يحس نفس الحس وأنه سهل بعد ذلك عملية هرب عبد المنعم لأنه كان وزيرا للداخلية في هذا الوقت .

المهم أن عبد المنعم ظل هاربا في لبنان وتزوج هناك وأنجب ولم يعد إلى مصر إلا بعد وفاة جمال .. وقد اشتريت له شقتين في مدينة نصر على حساب الدولة وأعطيته معاش عضو مجلس قيادة الثورة وكان هدفي من ذلك أن يحس عبد المنعم بالأمان الذي ظل يبحث عنه طويلا .

أنور السادات